• الفصل الأول

الجرح الخفى

لوحة القربان «التقديم»

فى عام ١٧٧٨ ، نصب مديرو شركة الهند الشرقية الإنجليزية لوحة زيتية جديدة باهظة الثمن فى مقر شركتهم بلندن «دار الهند الشرقية» . ومثل الكثير من الأعمال الفنية المماثلة ، قبل ومنذ ذلك التاريخ ، كان مستوى اللوحة متواضعًا ، إذ يصفها أحد المعلقين بأنها «عمل أضعف من أن يمنح أى رصيد للفنان الذى رسمه ولا لمن كلفوه به»[١] ، ولكن المديرين لم يكونوا ينشدون استحسان القيمة الفنية للمهمة التى أوكلوها للفنان ؛ فتلك اللوحة التى يبلغ عرضها ١٠ أقدام ويبلغ ارتفاعها أكثر من ثمانية أقدام ، والتى يعرض فيها الرسام سپريديون روما(*) لوحته المجازية العملاقة عن «الشرق يقدم ثرواته لبريطانيا» ، كانت مصممة لتترك بصمة فى ذهن من يراها (انظر الشكل ١ ـ ١) . لقد كان غرض لوحة القربان «التقديم»(**) المثبتة فى سقف غرفة لجنة عائدات الشركة ، حيث كان المديرون يراقبون مسار الأرباح والخسائر ، غرضًا بسيطًا وهو : أن تنقل للمشاهد السيادة التجارية التى حققتها الشركة فى ذلك الحين فى آسيا .

نجد فى قلب اللوحة علاقة بين ثلاث نساء كل منهن تمثل بلدها ، والمشهد ساحل آسيوى ، ونجد بريطانيا الجميلة جالسة على صخرة فى أعلى يسار اللوحة ناظرة لأسفل إلى الهند الجاثية على ركبتيها تقدم تاجها المحاط بالياقوت واللآلئ وهى مطأطئة رأسها ، وإلى جانبها الصين على ركبتيها أيضا ، وناظرة إلى أسفل فى استكانة وخضوع ، تقدم جزيتها الخاصة من الخزف والشاى ، ومن بستان من

(*) سپريديون روما فنان إيطالى من القرن الثامن عشر ـ (المترجم) .

(**) سوف يشار إلى لوحة «الشرق يقدم ثرواته لبريطانيا» من الآن فصاعدا باسم لوحة القربان «التقديم» ـ (المترجم) .

أشجار النخيل على يمين اللوحة تأتى قافلة من العمال يحملون بالات من القماش إلى جانب فيل وجمل، جميعهم يوجههم غربا عطارد الحازم، إله التجارة الكلاسيكى. ويجلس الأسد البريطانى عند قدمى بريطانيا، مثلما يرقد أبوها التايمز الكبير، علامة على أن الكثير من تلك الثروة كان سوف يتدفق إلى لندن[٢]. وبعيدا عن تلك المجموعة، خلف أولئك الأشخاص إحدى السفن التجارية الشهيرة للشركة تبحر بعيدا محملة بكنوز الشرق، ورايتها المخططة ترفرف فى الريح.

الشكل ١ ـ ١
سپريديون روما: الشرق يقدم ثرواته
إلى بريطانيا، ١٧٧٨

ولكى ينجز سپريديون لوحته القربان «التقديم» اعتمد على سلسلة طويلة من اللوحات المماثلة التى تعرض السيادة التجارية الأوروپية؛ فالنجاح المبكر للمنافس الرئيسى لشركة الهند الإنجليزية، وهى شركة الهند الشرقية الهولندية المتحدة، كان قد زود بيتر آيساكس(*) بالإلهام الذى كان يلزمه لإنجاز لوحته التى

(*) «بيتر آيساكس ـ Pieter Isaacsz » (١٥٦٨ ـ ١٦٢٥) فنان هولندى من أصل دنماركى يُعد واحدا من أبرز رسامى عصره ـ (المترجم).

رسمها عام ١٦٠٦ لترمز إلى أمستردام باعتبارها مركز تجارة العالم[٣]. وفى الصورة المجازية التى رسمها آيساكس، تقبض هولندا على وعاء الوفرة بيدها اليمنى وتسيطر بيدها اليسرى على العالم، ويقدم لها الخدم اللآلئ، فى حين تتصدر ثلاث من سفن الشركة الهولندية المتحدة مركز اللوحة. وبعد قرن من الزمان، جندت الشركة الإنجليزية النحات الهولندى ذائع الصيت مايكل ريسبراك ليبدع مدخنة رخامية فخمة لمقرها الجديد. على يسار ذلك النحت تجلس بريطانيا لتتلقى صندوق ثروة من امرأة تمثل آسيا، تحميها امرأتان، إحداهما تقود جملاً والأخرى تقود أسدًا؛ ويحيط بالنحت من الجهة اليمنى سفينتان من سفن الشركة. لكن النقطة المهمة هى أن بريطانيا وآسيا كانتا تنظرا فى عينى بعضهما البعض، كما لو كان الغرض هو الرمز إلى أن ذلك العصر ما زال عصرا تقيم فيه الشركة ثروتها على التبادل. كانت الشركة الإنجليزية قد كسبت أرضا بالفعل، ولكنها كانت لا تزال خلف منافستها الهولندية، وكانت قد بدأت بالفعل فى مواجهة منافسة قاسية من شركة الهند الفرنسية الجديدة.

ومع ذلك، فإنه بحلول عام ١٧٧٨، لم يعد هناك شك فى أن «شركة جون»، أى الشركة حسبما اشتهرت آنذاك، قد حلت محل «شركة جان» فى السيطرة على تجارة أوروبا مع آسيا؛ **ذلك أن سنوات الجدال حول حقوق التجارة مع الحكام المحليين فى الهند كانت قد انتهت قبل ذلك التاريخ بعقدين بالاستيلاء على البنغال عام ١٧٥٧**، فقد تمكنت قوات الشركة بقيادة «روبرت كلايف»، والتى جمعت بين العضلات الاقتصادية وجيشها الذى كان فعالا بالرغم من صغره، من هزيمة نواب(*) البنغال فى بلاسى، على بعد ٩٠ ميلاً شمال قاعدتها التجارية فى كلكتا. وقد عينت الشركة بسرعة **مير جعفر، وهو القائد الذى خان النواب المهزوم**، أول حاكم فى سلسلة من الحكام الدمى لإقليم البنغال. وفى صفقة تجارية أكثر من مجرد معركة حربية حقيقية، تلا هزيمة بلاسى نهب خزينة البنغال، وفى رمز قوى لنقل الثروة الذى كان قد بدأ آنذاك، **حملت الشركة**

(*) النَوَّاب: لقب كان يطلق على حاكم أى مقاطعة، مثل البنغال، فى فترة حكم المغول فى الهند. أصبح اللقب فيما بعد لقبا لأعيان المسلمين ـ (المترجم).

الذهب والفضة من خزائن البنغال فى أسطول يتكون من أكثر من مائة مركب وأرسلتها عبر النهر إلى كالكتا. وبضربة واحدة حقق كلايف للشركة ربحا صافيا يقدر بـ ٥ , ٢ مليون جنيه وحقق لنفسه ربحا يقدر بـ ٠٠٠ , ٢٣٤ جنيه[٤]. وهذا المكسب يساوى اليوم ما قيمته ٢٣٢ مليون جنيه إسترلينى من المكسب الذى لا عناء فيه، و٢٢ مليون جنيه أتعاب لكلايف جاءت بلا كد. ويرى العرف التاريخى أن بلاسى كانت هى الخطوة الأولى فى تأسيس الإمبراطورية البريطانية فى الهند. وربما يكون من الأفضل أن نفهمها على أنها أنجح الصفقات التجارية التى قامت بها شركة الهند الشرقية.

وفى القرن الذى تلا ذلك، استخدمت الشركة سيادتها على البنغال فى احتكار تجارته الداخلية والخارجية، وفى ذلك السياق أجبرت التجار الآسيويين والهولنديين والفرنسيين على الرحيل. وفى شهر أغسطس من عام ١٧٦٥، تم الاعتراف الرسمى بسيادة الشركة عندما وافق الشاه علم إمبراطور المغول المفلس على منح حق الديوانى(*) فى البنغال للشركة. وأعطى هذا الوضع الحكومى للشركة السيطرة على جمع الضرائب من أكثر من ١٠ ملايين نسمة. وبالنسبة لشركة مدرجة بسوق الأسهم وتعتبر الربح دافعها الأول، كانت السيطرة على المالية العامة للبنغال كسبًا ثوريًا بحق. ولم يكن من المدهش أن يرتفع سعر سهم الشركة عندما وصلت الأخبار إلى أسواق المال فى لندن فى أبريل عام ١٧٦٦.

وبالضبط مثلما صور سپريديون فى لوحته، بدأت ثروة الشرق تصب فى إنجلترا، مثل ذلك تحولاً غير عادى، فقبل معركة بلاسى كان «الميزان التجارى مع كل الدول فى صالح البنغال»، حسبما يذكر ألكسندر داو فى كتابه *«تاريخ الهندوستان»* الصادر عام ١٧٧٣[٥]. «لقد كانت البنغال هى البالوعة التى يختفى فيها الذهب والفضة دون أدنى احتمال لعودتها». الآن انعكس اتجاه التدفق، فقد اتحدت قوة الاحتكار مع العائدات الهائلة بلا مقابل لخلق قوة شرائية منقطعة النظير كانت تحصل على كميات هائلة دائمة التزايد من بضائع الشرق للأسواق

(*) حق الديوانى هو حق جمع الضرائب من السكان المحليين فى دولة الإمبراطورية المغولية ـ (المترجم).

الأوروبية. وعلى الرغم من الموانع التجارية الصارمة أمام القماش القطنى الهندى الرخيص، فإن المنسوجات البنغالية ـ وبخاصة قماش الموصلين القطنى الناعم الذى كان يصنع فى دكا ـ استمرت موضة أساسية عند الصفوة النسائية فى بريطانيا. بل إن بريطانيا التى صورها سپريديون بدت كما لو كانت ملفوفة فى قماش الموصلين. ولكن الشاى صار فى ذلك الوقت أنجح سلع الشركة، وساعدت ثروات البنغال على مضاعفة شحنه من فرع الشركة فى الصين فى كانتون «جوانجزهو ـ Guangzhou» ثلاث مرات فى السنوات الخمس التى تلت عام ١٧٦٨. ارتفع الاستهلاك السنوى من الشاى إلى حوالى رطل واحد لكل رجل وامرأة وطفل فى إنجلترا. وفى شوارع لندن جعلت الشركة أيضا وجودها ملموسا، وليس أقل مظاهر ذلك الوجود مقرها المهيب فى شارع ليدنهول، ومجمع أرصفة الرسو الضخم فى بلاكوول، وبيوت التجار الراقية حول محطة إستبنى جرين. وكان عام ١٧٧٨ ـ وهو العام الذى أنجز فيه سپريديون لوحته الشهيرة التى يحتفى فيها بالنجاح التجارى للشركة ـ سيبدو بالنسبة للجنة برلمانية مختارة للتحقيق فى أحوال الشركة بعد خمس سنوات عام «المد العظيم» لصادراتها من آسيا[٦].

عناصر مفقودة

تزودنا لوحة سپريديون «الشرق يقدم ثرواته لبريطانيا» بإطلالة خلابة على الطرق التى رغبت الشركة أن ترى نفسها ـ ويراها الآخرون ـ بها فى قمة سطوتها التجارية، ذلك أن مزجها بين الخيال الكلاسيكى وغرابة الشرق ـ كوكب المشترى فى بستان من النخيل ـ يعطى إحساسًا بالوفرة اللامحدودة التى جعلها نجاح الشركة فى الشرق ممكنة.

إلا أن تلك اللوحة العظيمة تفتقد إلى الشىء الكثير، فمثل الكثير جدًا من المشروعات الضخمة من ذلك الحين، أثبت الاستحواذ على البنغال أنه يتجاوز حجم شركة الهند الشرقية. ذلك لأن النشاط المبدئى لسوق الأسهم سرعان ما

أفسح الطريق أمام الإفراط وسوء الإدارة والانهيار. وعندما حولت الشركة نفسها من مشروع تجارى متواضع إلى آلة مؤسسة قوية، فشلت نظم إدارتها فى التماشى مع المسئوليات الجديدة التى كان عليها مواجهتها. وأصبح اضطهاد النساجين والمزارعين المحليين هو القاعدة العامة، وخرج الإنفاق العسكرى عن نطاق التحكم مع تولى المغامرين السيطرة بدلا من التجار، واستشرى الفساد بصورة وبائية، كما ظهرت المضاربة على أسهم الشركة، وهو الأمر الذى حث عليه كلايف وآخرون. ثم فى عام ١٧٦٩، استفز الصراع الذى نشب جنوب الهند المستثمرين ذوى المزاج العصبى، مما أدى إلى الهبوط الحر لسعر سهم الشركة. وظهر أثر هذه الأزمة المالية فى أوروبا وواجهت الشركة الإفلاس. وفى كل مكان فى البنغال؛ تحول الجفاف إلى مجاعة؛ لأن المديرين التنفيذيين للشركة كانوا يربحون ربحا فاحشا من رفع أسعار الحبوب. وتدفقت المسرحيات والكتيبات والقصائد من المطابع فى بريطانيا للتشهير بالشركة ومديريها. وأصبح رسامو الكاريكاتير يصورون مديرى الشركة على أنهم نوابون «حكام» جشعون، أو الطبقة المرفهة فى إنجلترا فى ظل حكم الملك جورج. ومثل الكثير من معاصريه، كان أستاذ الفلسفة الأخلاقية فى جامعة جلاسجو آدم سميث متوجسا من الطريقة التى «تقهر وتسيطر» بها الشركة فى الهند الشرقية[٧]. واضطر البرلمان إلى التدخل، فى حين ركز الوطنيون «الأمريكيون» عبر الأطلنطى فى المستعمرات البريطانية فى أمريكا على الشاى الذى تصدره الشركة باعتباره رمزا للقهر. وبحسب ما ذكره أحد «الأمريكيين» فى طلب قدمه لنقابة التجار فى بنسلفانيا، **كانت أمريكا تواجه «أقوى شركة تجارية فى الكون»، مؤسسة «متمرسة فى الطغيان والنهب والقهر وإراقة الدماء»**[٨]. وفى مساء عام ١٧٧٣، ارتدى الوطنيون «الأمريكيون» زى «الهنود» وألقوا بشاى شركة الهند الشرقية فى ميناء بوسطن، وهى البداية الرمزية لحرب الاستقلال الأمريكية.

لقد كانت الحرب لا تزال مستعرة فى أمريكا عندما أزيح الستار عن لوحة القربان «التقديم» فى مبنى الشركة لأول مرة. وفى لندن استمر سعر سهم الشركة فى التدهور إلى نصف المستوى الذى كان قد وصله خلال عقد الستينيات من القرن الثامن عشر. وفى الهند؛ اتخذ أقدم مديرى الشركة

الحاكم الجنرال وارين هاستينجس[*] سلسلة من الإجراءات اليائسة لكى يعيد للشركة صحتها المالية. وبنظرة إلى تلك الحقبة التى حاول البرلمان فيها مرة أخرى وضع الشركة زمام المسئولية والمحاسبة فى أوائل عقد الثمانينيات من القرن الثامن عشر، كان الفيلسوف والسياسى إدموند بورك[**] قاسيًا جدًا فى نقده للشركة؛ فبالنسبة له كانت شركة **الهند قد «دُمرّت بصورة جذرية وعلى نحو لا يمكن معه الإصلاح»** من خلال **«استنزاف الشركة المتواصل»** لثرواتها ـ وهى العبارة التى قدر لها أن تطارد الوجود البريطانى فى الهند لمدة المائة والخمسين عاما التالية[٩].

إلا أن أيا من هذا ـ المضاربة على أسهم الشركة، والحروب، والفساد ـ لم يكن يسمح له بأن يفسد التعبير عن الثقة الكبيرة التى عهد مديرو الشركة الأربعة والعشرون لسپريديون روما أن يعبر عنها. لقد كانت هناك بعض الأشياء دائما خفية، كما هو الحال الآن.

انعدام غريب للرؤية

شركة الهند الشرقية، التى أسستها إنجلترا عشية السنة الجديدة عام ١٦٠٠، هى أم المؤسسات الحديثة؛ ففى فترة وجودها التى تعدت القرنين ونصف القرن من الزمان، كانت جسرا بين العالم الميركانتيلى[***] ذى التراخيص الاحتكارية، وعصر الصناعة الذى يتميز بالمؤسسات المسئولة فقط أمام حاملى أسهمها. ذلك أن تأسيس الشركة بمرسوم ملكى، واحتكارها لكل التجارة بين بريطانيا وآسيا، وامتيازاتها شبه السيادية فى حكم المقاطعات وتكوين الجيوش، تجعل وضع الشركة كمؤسسة ضخمة فى زمن لاحق. ربما كانت الشركة تشير إلى العاملين

(*) وارين هاستينجس، أحد كبار موظفى الشركة، ترقى فى مناصبها وفى إدارة أقاليم الهند حتى تم تعيينه عام ١٧٧٢ حاكما للبنغال، ثم حاكما عاما للهند عام ١٧٧٣ـ (المترجم).

(**) إدموند بورك سياسى ومؤلف وخطيب ومنظر سياسى خدم لفترة طويلة فى مجلس العموم البريطانى، واشتهر بمساندته للمستعمرات البريطانية فى أمريكا إبان صراعها مع الملك جورج الثالث، واشتهر أيضا بمعارضته الثورة الفرنسية ـ (المترجم).

(***) نظرية اقتصادية سادت فى أوروبا حتى القرن الثامن عشر، تدعو لتدخل الحكومات لتقوية الاقتصاد فى مواجهة الدول الأخرى، وترى أن ثروة الأمم تتوقف على كمية المعادن الثمينة التى بحوزتها ـ (المترجم).

بها على أنهم موظفون لا على أنهم مديرون تنفيذيون، وربما كان التواصل بين قطاعاتها يتم بقلم الريشة وليس عن طريق البريد الإليكترونى، لكن السمات الأساسية للمؤسسات المملوكة لحاملى الأسهم تظل واضحة للعيان.

أكثر من وضع الشركة كرائدة للمؤسسات، فإن مجرد حجم عملياتها يجعلها ذات أهمية عالمية من الناحية التاريخية. ففى أوج حالها، توسعت إمبراطوريتها التجارية من بريطانيا عبر المحيط الأطلنطى وحول طريق رأس الرجاء الصالح إلى الخليج ووصولا إلى الهند. وتم إنشاء مراكز تجارية فى جزيرة سانت هيلانه فى المحيط الأطلنطى حيث كان نابليون فى المنفى يشرب القهوة التى تبيعها الشركة، كذلك تم إنشاء مصانع للشركة فى البصرة وجمبرون (بندر عباس) فى الشرق الأوسط. إلا أن الأثر الذى تركته الشركة على الهند كان أكثر عمقا، حيث أدت العمليات التجارية للشركة إلى بروز بعض أهم وأكبر مدن الهند وخاصة بومباى (مومباى سابقا) وكلكُتا ومدراس (تشناى سابقا). وخلف تلك الموانى الساحلية قامت الشركة بتكوين إمبراطورية هائلة من الأراضى، انطلاقا فى البداية من رغبتها فى تحقيق المزيد من العائدات، ثم أصبح ذلك غاية فى حد ذاته بعد ذلك، وفى النهاية تمكنت الشركة من حكم معظم أراضى شبه القارة الهندية. إلا أن الشركة لم تتوقف عند هذا الحد، وإنما امتد نفوذها إلى جنوب شرق آسيا، وكذلك الصين واليابان، فقامت بشراء ميناءى بينانج (فى ماليزيا الآن)، وسنغافورة فى عصر كانت الأقاليم تباع فيه وتشترى شأنها شأن السلع. وإذا كانت الشركة قد حققت أول ثرواتها التجارية فى الهند، فقد حققت فى الصين ثروة أخرى. وكانت الشركة تقوم من خلال مصنعها فى كانتون بإرسال ملايين الأرطال من شاى بوهيا، وكونجو، وسوشون، وبيكو(*) غربا إلى بريطانيا وما وراءها. وبالنسبة لصادرات الشركة إلى الصين، كانت الفضة فى البداية، ثم طوفان من أفيون «باتنا ـ Patna»(**) بعد ذلك، والذى كان يتم تهريبه فى صناديق تحمل، بفخر، العلامة التجارية المميزة للشركة.

(*) أنواع من الشاى الفاخر الذى كانت تستورده أوروبا فى تلك الفترة ـ (المترجم).

(**) مدينة باتنا واحدة من أقدم المناطق التى أهلها السكان فى العالم، وهى تقع على نهر الجانج، وهى الآن عاصمة ولاية بيهار الهندية ـ (المترجم).

كانت الشركة خلال فترة وجودها فى حالة أشبه ما تكون بالتحول المستمر، وجاءت نهايتها عقب الثورة التى قامت ضد حكمها فى الفترة من عام ١٨٥٧ و١٨٥٨، وهو صراع يعرف بصفة عامة فى بريطانيا بـ «التمرد الهندى ـ Indian Mutiny» وفى الهند بـ «حرب الاستقلال الأولى ـ First War of Independence». لم تعد الشركة تمارس التجارة، بل صارت تدير الأراضى التى سيطرت عليها فى الهند كممثل رسمى للتاج البريطانى. لكن كان هناك عنصر لم يزل باقيا، وهو الغرض الأساسى لها كمؤسسة تهدف إلى الربح وتضع نصب عينيها دائما مساهميها وحصة الربح السنوية. وعقب قيام الشركة بقمع الثورة واسعة النطاق فى الهند، ثار رد فعل شعبى عنيف ضدها وضد وضعها الذى لم يعد يناسب العصر. وصدر قانون الهند فى عام ١٨٥٨ الذى تم من خلاله تأميم الشركة بشكل فعال، وانتقلت جميع الحقوق والمسئوليات الخاصة بها إلى الدولة البريطانية، وكانت تلك هى بداية الحكم البريطانى فى الهند. إلا أن الشركة استمرت فى الوجود «كظل شبح» على حد تعبير أحد المراقبين؛ إذ فقدت الشركة الغرض الذى تأسست من أجله، إلا أن أعضاء مجلس إدارتها كانوا يصرون على حماية رأس مالها طوال السنوات الباقية من عمر مرسوم تأسيسها الأخير. وأخيرًا انتهت تلك الفترة وحصل مساهمو الشركة على سندات حكومية فى مقابل أسهمها. وفى الأول من شهر يونية عام ١٨٧٤ انتهت الشركة من الوجود.

من المؤكد أن الحكم الاستعمارى كان هو النتيجة النهائية للمغامرات التى قامت بها الشركة فى آسيا. إلا أن ما دفع إلى السير فى ذلك الطريق بعناد هو السعى وراء تحقيق الأرباح الشخصية لموظفيها ولها أيضا. لكن هذا السعى الدائم تسبب فى نتائج كان لها الأثر المدمر على العالم. **وعندما اختفت الشركة من الوجود، كانت قد غيرت مجرى التاريخ الاقتصادى، وعكست اتجاه تدفق الثروات من الغرب إلى الشرق الذى استمر لقرون.** لقد كانت أوروبا منذ عهد الرومان هى الشريك التجارى الذى تلجأ إليه آسيا دائما، حيث كانت أوروبا تقوم بشحن الذهب والفضة إلى آسيا فى مقابل التوابل والمنسوجات وغيرها من السلع الكمالية. وانجذب التجار الأوروبيون إلى الشرق بسبب ثرائه وتقدمه فى

وقت كان فيه حجم الاقتصاد الغربى صغيراً جدّا مقارنة بالاقتصاد الآسيوى. وخلال المائة والخمسين عاما الأولى، كان على الشركة أن تكرر ذلك النهج، حيث لم يكن هناك تقريبا صادرات بريطانية تغرى أهل الشرق بشرائها، إلا أن الشركة غيرت ذلك النسق الخاص بالتجارة والثروة والذى دام لفترة طويلة، وكانت بداية هذا التغير فى البنغال خلال العقود التى تلت معركة بلاسى، ثم فى الصين من خلال تجارة الأفيون، وعندما زالت الشركة كان الاقتصاد الأوروبى قد زاد حجمه ليصبح ضعف اقتصاد الصين والهند، وهو عكس الوضع الذى كان سائدا فى عام ١٦٠٠ (انظر الجدول ١ ـ ١). لقد كان هناك الكثير من العوامل التى أدت إلى هذا التحول، إلا أنه من المؤكد أن شركة الهند الشرقية هى أحد العوامل الرئيسية التى تسببت فى ذلك التحول الكبير فى التطور العالمى الذى كان يمثل بداية مولد العصر الحديث.

لكنك لو سرت إلى موقع المقر الرئيسى لشركة الهند الشرقية ـ كما فعلت أنا ـ لوجدت أنه لا يوجد هناك ما يشير إلى ذلك التأثير الهائل لتلك الشركة التى كانت فى منتهى القوة فى يوم من الأيام، ففى هذا المكان نجد اليوم «بناية ليودز ـ Lioyds Building» التى شيدها ريتشارد روجرز(*) والتى بنيت من الصلب والزجاج. وفى هذا المكان كان أعضاء مجلس إدارة الشركة يديرون العمليات الخاصة بها فى جميع أنحاء العالم، كذلك كانت تقام المزادات ربع السنوية الشهيرة للشركة. كانت تلك المزادات تستمر لأيام فى بعض الأحيان، وكانت الجلبة صاخبة حتى أن أصوات «الصياح والصراخ» الصادرة من غرفة البيع كان يمكن سماعها عبر الحوائط الحجرية السميكة الموجودة فى الشارع بالخارج. وتُظهر لنا رواية لورانس نورفولك(**) الرائعة «*قاموس ليمبرير*» الصادرة فى عام ١٩٩١ بعض تلك الأحاسيس، حيث تَحَدَّث فيها عن جمعية سرية تتحكم فى الشركة من خلال كهوف تقع أسفل شوارع لندن؛ وعندما يقترب البطل من المقر الرئيسى لشركة الهند الشرقية يجد أمامه «مبنى حجريا ضخمًا يمتد بطول شارع ليدنهول وكأنه جثة متحجرة»(١٠).

(*) ريتشارد روجرز «Richard Rogers» أحد كبار المعماريين فى تاريخ إنجلترا الحديث ـ (المترجم).

(**) روائى بريطانى اشتهر برواياته التاريخية، وقد فاز بجائزة سومرست موجام عن روايته المذكورة التى تحكى قصة نشر جون لاميرير لكتابه «بيبليوتيكا كلاسيكا» عن تاريخ الأساطير القديمة ـ (المترجم).

الجدول ١ ـ ١ : الحصص المتغيرة من إجمالى الناتج المحلى لبريطانيا وأوروبا الغربية، والصين والهند، والعالم فى الفترة ما بين عامى ١٦٠٠ إلى ١٨٧٠ (المبالغ مقدرة بملايين الدولارات الدولية فى عام ١٩٩٠)

	١٦٠٠	النسبة المئوية للإجمالى	١٧٠٠	النسبة المئوية للإجمالى	١٨٧٠	النسبة المئوية للإجمالى
بريطانيا	٦٠٠٧	١,٨٠	١٠٧٠٩	٢,٨٨	١٠٠١٧٩	٩,١٠
أوروبا الغربية	٦٥٩٥٥	٢٠,٠٢	٨٣٣٩٥	٢٢,٤٦	٣٧٠٢٢٣	٣٣,٦١
الصين	٩٦٠٠٠	٢٩,١٤	٨٢٨٠٠	٢٢,٣٠	١٨٩٧٤٠	١٧,٢٣
الهند	٧٤٢٥٠	٢٢,٥٤	٩٠٧٥٠	٢٤,٤٤	١٣٤٨٨٢	١٢,٢٥
العالم	٣٢٩٤١٧		٣٧١٣٦٩		١١٠١٣٦٩	

المرجع/ أنجوس ماديسون، الاقتصاد العالمى، باريس: منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية، ٢٠٠١، ص٢٦١، الجدول B-18.

Angus Maddison, The World Economy, Paris, OECD, 2001.

ولم يكن شارع ليدنهول هو أول مقر للشركة. لقد كانت الأعمال التجارية للشركة تجرى فى قصر أول حاكم (أو رئيس) لها، وهو السير توماس سميث الذى كان يقع فى المنطقة التجارية فى لندن، وذلك عندما قامت الملكة إليزابيث الأولى بإنشاء شركة «الحاكم، ومجموعة تجار لندن للتجارة مع جزر الهند الشرقية»، وكان قصره يقع فى الزقاق الضيق فى منطقة فيلبوت لين، ولا تزال ذكراه تعيش فى مطعم الكارى الذى يحمل اسما على مسمى وهو «تاجر التوابل». ثم انتقل مقر الشركة إلى الشمال بمقدار مئات قليلة من الياردات ليحتل

قاعة كروسبى(*). وبعد انتقال المقر الرئيسى للشركة من ذلك المكان بفترة طويلة، ظل ذلك المبنى الرائع الذى يمثل الطراز المعمارى الذى ساد فى عصر الملك جيمس الأول فى قلب المنطقة التجارية فى لندن. وعندما أراد المسئولون عن تطوير العقارات إزالة ذلك المبنى فى نهاية القرن العشرين، تم تنظيم حملة شعبية جمعت الأموال اللازمة لتفكيكه وإعادة بنائه حجراً حجراً على قطعة أرض على النهر فى تشلسى، وظل القصر قيد الاستخدام من قبل القطاع العام كَكُلِّيَّة حتى قامت مارجريت ثاتشر ببيعه بعد قيامها بإلغاء مجلس مدينة لندن الكبرى فى عام ١٩٨٦، ثم قام أحد الممولين بشرائه، وهو الممول الذى قام حديثا ببناء شركة التأمين العملاقة ليودز، وهو الموقع الذى كانت قد احتلته الشركة العظمى خلال المرحلة التالية من مراحل تطورها.

كانت بداية انتقال شركة الهند الشرقية إلى مقرها الأخير فى عام ١٦٤٨، وقد مر هذا المكان بمراحل كثيرة خلال فترة وجوده التى استمرت مائتى عام. ففى التسعينيات من القرن السابع عشر كان يُعرف باسم «القصر الذى ينتمى إلى شركة الهند الشرقية، وهى شركة كبيرة تتكون من رجال أذكياء لهم أغراض دفينة»(١١). وبحلول بدايات القرن الثامن عشر أصبح أحد العلامات البارزة فى المنطقة التجارية فى لندن، وأصبح أحد أركان ثلاثى الشركات الضخمة فى ذلك العصر جنبا إلى جنب مع شركة ساوث سى ومصرف إنجلترا. كان ذلك المقر يتمتع بجو خاص يوحى بالحياة البحرية؛ حيث ينتصب أعلاه تمثال لبحار ودولفينين، وبرزت أهميته لكل من يمر عليه من خلال كل من العلامة الملكية وعلامة الشركة اللتين كانتا تزينان الواجهة. وعندما انهارت شركة ساوث سى بعد انهيار مشروعها الوهمى الشائن فى عام ١٧٢١، حققت الشركة ومقرها الرئيسى هيمنة من نوع جديد فى إنجلترا فى عصر والبول(**). وفى عام ١٧٢٩ أعيد بناء المقر الرئيسى لشركة الهند الشرقية، وكان ذلك البناء الجديد يوحى لزائريه بالهيمنة

(*) أحد أهم المبانى فى لندن القديمة، ضاع معظمه بعد حريق لندن عام ١٦٦٦، استغلته الشركة كمقر لاجتماع مجلس إداراتها لفترة ـ (المترجم).

(**) سير روبرت والبول، أحد أبرز رؤساء وزراء بريطانيا، تولى منصبه فى فترة حكم جورج الأول ثم فى فترة حكم جورج الثانى ـ (المترجم).

العالمية للشركة من خلال مجموعة من اللوحات الزيتية التى تصور المراكز التجارية للشركة التى تمتد من المحيط الأطلنطى (جزيرة سانت هيلانه) إلى إفريقيا (كيب تاون) والساحل الغربى للهند (بومباى وتيليشيرى) ثم مدراس وكلكُتا.

وعقب معركة بلاسى، أضيفت إلى رموز البراعة التجارية الفائقة تماثيل للأبطال العسكريين للشركة، ففى البداية تم وضع تماثيل لكلايف، وسترينجر لورانس(*)، وبعد ذلك ماركيز كورنواليس(**) وآرثر ويلزى(***) ـ جنرال الجنود الهنود ـ الذى أصبح فيما بعد دوق ولينجتون. ولكن مع ازدياد نفوذ الشركة لم يعد المبنى المصمت الذى أنشئ فى العشرينيات من القرن الثامن عشر يناسب عظمة العمليات التى تقوم بها الشركة فى جميع أنحاء العالم. ولقد ذكر جيمز نورثوك فى كتابه «*تاريخ لندن الجديد*» الذى نشر عام ١٧٧٣ أن «مظهر المبنى لا يناسب أبدا ثراء الشركة التى يمارس موظفوها سلطة سيادية فى أراضى الهند»(١٢). وهكذا شهدت الفترة ما بين عامى ١٧٩٦ و١٧٩٩ إنشاء مبنى ضخم على الطراز اليونانى الرومانى يبلغ طوله ٢٠٠ قدم، وفوق الرواق المعمد يظهر الملك جورج الثالث وهو يدافع عن تجارة الشرق، وبصحبته مرة أخرى ثلاث سيدات رمزيات: السيدة بريطانيا تركب أسدا وأوروبا تركب حصانا، وآسيا تتبعهما على ظهر جمل.

داخل ذلك الصرح المبهر كان يجلس العشرات من الموظفين الذين بقى الكثيرون منهم يعيشون حتى الآن فى ذاكرة بريطانيا الثقافية، ليس بسبب عملهم فى الشركة، ولكن بسبب صلتهم بالأدب الإنجليزى، فنجد أن تشارلز لامب مؤلف «*مقالات إيليا*» وصديق شعراء المدرسة الرومانسية كان يعمل فى قسم الحسابات فى الشركة بداية من عام ١٧٩٢. وقد أهدى صمويل تايلور

(*) سترينجر لورانس (١٦٩٧ ـ ١٧٧٥) أول قائد عام للقوات البريطانية فى الهند ـ (المترجم).

(**) ماركيز كورنواليس (١٧٣٨ ـ ١٨٠٥) قائد عسكرى بريطانى لعب دوراً كبيراً فى حرب الاستقلال الأمريكية ثم ذهب إلى الهند وشارك فى هزيمة سلطان ميسور فى حربه الثالثة مع القوات الإنجليزية، ثم أصبح بعد ذلك حاكماً عاماً للهند ـ (المترجم).

(***) آرثر ويلزى (١٧٦٩ ـ ١٨٥٢) سياسى إنجليزى من أصل أيرلندى. خدم فى الجيش وحارب فى جبهات عدة من أهمها دوره فى حرب ميسور الرابعة فى الهند التى عين بعدها حاكما لمقاطعاتى سيرينجباتام وميسور، وانتصر فى موقعة واترلو الشهيرة على نابليون ـ (المترجم).

كوليردج[*] قصيدته التى كتبها فى عام ١٧٩٧ «*تعريشة شجر الزيزفون*» إلى «صديقى تشارلز طيب القلب» الذى ظل لسنوات يتوق ويشتاق إلى الطبيعة وهو حبيس المدينة الكبيرة. وكان لامب على مدى ٣٣ عاما يثنى تارة على الدخل الثابت الذى وفرته له وظيفته، ويلعن تارة الملل الذى تسببه له حياة المكاتب. وفى عام ١٨١٥، كتب خطابا إلى صديقه وردزوورث[**] يقول فيه: «تفسد الفوضى جميع الصفقات التجارية والمعاملات وتبادل السلع والتعاملات بين الشعوب»[١٣]. وفى فبراير من عام ١٨٠٥، لقى جون شقيق وردزوورث حتفه عندما تحطمت إحدى سفن الشركة ـ «إيرل أبرجافينى». وإلى جانب لامب، التحق الروائى توماس لاف بيكوك ـ مؤلف روايات الرعب ـ بالعمل بالمقر الرئيسى للشركة فى عام ١٨١٩، وأصبح أحد ثلاثة مفتشين مساعدين. وقد أثارت تلك الوظيفة الجديدة التى حصل عليها بيكوك روح الدعابة عند لى هنت[***] فكتب إلى الشاعر بيرسى بيشى شيلى[****] يقول له: «إننا نهزأ من عظمته الشرقية وعلمه البراهمى[*****] وميله الحتمى ليصبح أحد الفاسدين»[١٤]. كذلك التحق مفكر المنفعة الناشط جيمس ميل بخدمة الشركة فى العام نفسه، وانضم إليه فى عام ١٨٢٣ ابنه جون ستيوارت، وفى عام ١٨٣٥ انضم إليه أيضا جيمس بنتام (الذى تم تعيينه فى البنغال)، وبعد موت الأب سار جورج جروت ميل على خطى والده وأصبح موظفا فى عام ١٨٤٤. لقد كان كل فرد تقريبا خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر فى إنجلترا مرتبطًا بطريقة أو بأخرى بشركة الهند الشرقية، سواء من خلال الالتحاق بوظائف الشركة مباشرة أو العلاقات العائلية أو استهلاك منتجاتها.

(*) صمويل تايلور كوليردج (١٧٧٢ ـ ١٨٣٤) أحد كبار شعراء الحركة الرومانسية فى القرن التاسع عشر ـ (المترجم).

(**) ويليام وردزوورث (١٧٧٠ ـ ١٨٥٠) الرائد الأكبر للحركة الرومانسية، اشترك مع رفيقه كوليردج فى إصدار ديوان القصائد الغنائية عام ١٧٩٨ ـ (المترجم).

(***) لى هنت (١٧٨٤ ـ ١٨٥٩) كاتب وناقد وشاعر إنجليزى ـ (المترجم).

(****) بيرسى بيشى شيلى (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢) ثالث أقطاب الحركة الرومانسية فى بدايات القرن الثامن عشر. عاش حياة قصيرة جدًا إلا أنه استطاع أن يترك بصمة فى الأدب الإنجليزى ـ (المترجم).

(*****) البراهمان أعلى طبقة عند الهندوس ـ (المترجم).

انتهت تلك المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل حياة المقر الرئيسى لشركة الهند الشرقية منذ زمن طويل، حيث تم إزالته فى عام ١٨٦١ بعد مرور ثلاث سنوات فقط على دخول ممتلكات الشركة فى إمبراطورية الملكة فيكتوريا. وكان العمل الرمزى ـ الذى أبدعه سپريديون والذى يرمز لبريطانيا بامرأة ـ أحد الأعمال التى انتقلت عبر لندن فى رحلة قصيرة ـ ولكن رمزية ـ من شرقها حيث التجارة إلى غربها حيث السياسة. واليوم نجد أن الكثير من التحف الخاصة بالشركة تملأ «متحف فيكتوريا وألبرت» وعلى وجه الخصوص ذلك النمر الميكانيكى الذى كان يملكه «تيبو صاهب» سلطان «ميسور ـ Mysore». أما لوحة القربان «التقديم» فقد استُخدمت فى البداية لتزيين مبنى وزارة شئون الهند، ثم تزيين مبنى وزارة الخارجية والكومنولث، ولا يزال التمثال قائما على درج الجورخا(*) هناك. أما فى باقى مناطق لندن فلا يوجد سوى أقل القليل من الأشياء العينية التى خلفتها الشركة، ولكن ـ كعادة البريطانيين ـ هناك حانة تدعى «جيوش الهند الشرقية» فى شارع فينتشرش، وهى تحتل جزءا صغيرا جدا من مجمع للمخازن كان يمتد باتجاه منطقة «آلدجيت».

تمتلئ مدينة لندن بالنصب التذكارية، إلا أنه لا يوجد من بينها ما يخلد ذكرى شركة الهند الشرقية، ويعد ذلك غريبا جدا باعتبار أن الشركة كانت هى المؤسسة المفضلة فى لندن، وكان مرسوم تأسيسها يستبعد بوضوح التجار فى الموانى الأخرى من التجارة مع آسيا. إلا أن المسألة لا تتعلق بأن لندن قد تغاضت عن الاحتفاء بذكرى جزء من تاريخها، ففى الموقع الذى كان فيه المقر الرئيسى لشركة الهند الشرقية، على سبيل المثال، نجد لوحة تخلد ذكرى تأسيس النظام البريدى فى بريطانيا الذى جعل رسوم إرسال الخطابات بنسًا واحدًا فقط، والذى قام بتأسيسه ويليام دوكود فى عام ١٦٨٠. لكن لا يوجد ما يشير إلى أن المقر الرئيسى لشركة الهند الشرقية استمر موجودا فى ذلك المكان لأكثر من مائتى عام(١٥). لقد اختفت الكثير من المؤسسات من ذاكرة التاريخ لأسباب معقولة، إلا أن محو ذكرى شركة الهند الشرقية يثير الشكوك إلى أقصى الحدود.

(*) نسبة إلى قبائل «الجورخا ـ Gurkha» الهندية التى كانت تتميز بقدرتها الحربية الفائقة وشجاعة مقاتليها. خدم العديد من أفرادها فى الجيش الإنجليزى ـ (المترجم).

إن محاولة تفسير غياب شركة الهند الشرقية من ذاكرة التاريخ تتعلق بالوضع الذى تحتله الشركة تاريخيا والذى يثير الجدل. وبعيدا عن الحياة الأكاديمية، نجد أن الموروث الذى تركته شركة الهند الشرقية لا يزال حيا فى الذاكرة الجماعية لشعوب العالم، وهو موروث تتطرق إليه باستمرار الكتب والمعارض والأفلام الوثائقية. إلا أن تلك الوسائل لا تتناول ذلك الموروث بالطريقة نفسها، حيث نجد آراء متضاربة تضاربا شديدا فى أوروبا وآسيا، ويزداد هذا التضارب فى الهند التى لا تزال الشركة تحتل فى ثقافتها المعاصرة مكانا بارزا.

مواجهة الأمراض

وفى الهند، بقيت الآثار المادية التى خلفتها الشركة، فنجد بقايا الحصن الخاص بها فى ميناء تيليشيرى، ذلك الميناء الذى كان يستخدم فى تصدير الفلفل الأسود على الساحل الغربى للهند، ونجد أيضا فخامة وعظمة حصن القديس جورج فى الجانب الشرقى. وفى كلكُتا نجد الأثر الأكبر للشركة، فهى «بلدة الشركة» الهائلة الاتساع. لقد تغيرت بعض الأسماء البريطانية للشوارع، إلا أن البصمة التى تركتها الشركة على البلدة واضحة تمام الوضوح. لقد أظهرت عمليات التنقيب التى تمت فى إطار عملية المسح الأثرى للهند، أن المنطقة المحيطة بالجزء الذى أصبح فيما بعد كلكُتا، كان مركزا تجاريا مزدهرا قبل قرون من مطالبة جوب شارنوك(*) بضمها إلى أراضى الشركة فى أغسطس من عام ١٦٩٠. **كانت البنغال قد اشتهرت فى الشرق بأنها «جنة الأرض» بما تمتلكه من ثروات وما تتمتع به من رخاء، وهكذا جذبت أفواجا من التجار الأوروبيين بسبب جودة منسوجاتها.** وكان التجار البرتغاليون هم أول من رسخوا وجودهم هناك فى عام ١٥٣٥، ثم حل محلهم التجار الهولنديون بعد قرن واحد. ولقد تأخرت الشركة الإنجليزية إلى حد ما فى المجىء إلى البنغال، إلا أن قاعدتها الجديدة فى كلكُتا قد تأسست بسرعة، وتم إنشاء أولى متاريس الحصون فى عام ١٦٩٦ والتى أصبحت

(*) جوب شارنوك (١٦٣٠-١٦٩٣) كان أحد موظفى الشركة، ثم أصبح من مديريها - (المترجم).

فيما بعد حصن ويليام، وبعد عامين حصلت الشركة على حق جمع الضرائب (zamindari) على الثلاث قرى المجاورة للمدينة وهم سوتانوتى وجوفنبور وكوليكاتا. وفى عشرينيات القرن الثامن عشر؛ كانت الشركة تحصل على أكثر من نصف وارداتها الكلية من آسيا من البنغال، وكانت معظم تلك الواردات تأتى عن طريق كلكُتا. كذلك جذبت مدينة كلكُتا الكثير من الهنود بسبب حياة الرخاء التى سادت فيها، وبحلول منتصف القرن الثامن عشر كان عدد سكان المدينة أكثر من ١٢٠ ألف نسمة لم يكن من بينهم سوى ٢٥٠ من موظفى الشركة.

وبعد مرور مائتى عام لا يزال حصن ويليام يحتل المنطقة المجاورة لنهر هوجلى(*) على بعد ميل جنوبى الموقع الأصلى، حيث كان الجيش البنغالى قد حاصر الحصن الأصلى واحتله فى شهر يونية من عام ١٧٥٦ وعقب استعادة الشركة لمدينة كلكُتا، والنصر الذى حققته فى معركة بلاسى، قام كلايف بنقل الحصن إلى موقع أفضل من الناحية الإستراتيجية. إلا أن دفاعاته المنيعة لم توضع على المحك ولا يزال الحصن يستخدم عسكريا، حيث يستخدمه الجيش الهندى كقاعدة للقيادة الشرقية له. وبالقرب منه يقع النصب التذكارى للملكة فيكتوريا من الرخام الأبيض، والذى يقدم عرضا متوازنا على نحو لافت للنظر لتاريخ كلكُتا والدور الذى لعبته الشركة فى قيام هذه المدينة وتكوينها. وفى الشمال نجد قصر الحكم فى عهد الشركة والذى لا يزال يستخدم كمقر لحاكم البنغال. كان قد تم البدء فى تشييد هذا المبنى الضخم بمجرد وصول الحاكم الخامس للبنغال ريتشارد ويليزلى إلى الهند فى عام ١٧٩٨، وقام ويليزلى بتصميم المبنى الذى كان سيصير مقر إقامته على طراز قصر كيدلستون، وهو قصر ريفى فى مقاطعة ديربى شاير فى إنجلترا، ولم تكن عظمة وفخامة المقر الجديد لشركة الهند الشرقية فى لندن ـ الذى كان على وشك الاكتمال ـ لتفوق هذا المقر الجديد لحاكم البنغال. كان ويليزلى تواقا للانتقام من رؤسائه الذين كان يشير إليهم باحتقار على أنهم «بائعو الجبن فى شارع ليدنهول»، ولهذا لم يتورع أبدا عن إنفاق كل ما كان فى

(*) أحد فروع نهر الجانج يمتد عبر البنغال بطول ٢٦٠ كم ـ (المترجم).

متناول يده من أموال على هذا الصرح لتحقيق الزهو والخيلاء. وبالقرب من هذا المبنى نجد مبنى الكَتَبَة الذى استمد اسمه من موظفى الشركة الذين كانوا يملئون ذلك المركز الإدارى فى يوم من الأيام، ولا يزال يضم الموظفين الرسميين لحكومة غرب البنغال.

لكن هناك أموراً تتعلق بالهوية تعد بذورا للصراع بعد مرور قرون، وتؤكد على تلك الأمثلة الملموسة التى توضح العلاقة القوية بين الشركة وكلكُتا، فنجد على سبيل المثال أن العائلات المحلية لم تتمكن من رفض الادعاء القائل بأن جاكوب تشارنوك هو المؤسس «الرسمى» لمدينة كلكُتا إلا حديثا، حيث يرون أنه كان هناك العديد من المستعمرات الهندية فى تلك المنطقة قبل وصول الشركة إلى الهند بوقت طويل. كذلك لا تزال معركة بلاسى تثير مشاعر عميقة فى صدور البنغاليين، ولا يزال مير جعفر ـ القائد الذى تحالف مع كلايف بهدف السيطرة على عرش البنغال ـ رمزا شعبيا للخيانة. ونجد بصفة عامة فى الهند أن شركة الهند الشرقية لا تزال ترمز للخطر الذى تمثله الشركات الأجنبية الضخمة التى «تأتى بهدف التجارة لكنها تبقى من أجل الحكم». وقد تأصلت وجهة النظر تلك بعمق فى حركة استقلال الهند والتى تمكنت فى النهاية من طرد البريطانيين فى عام ١٩٤٧. وقام روميش تشاندر دت فى كتابه *«التاريخ الاقتصادى للهند تحت الحكم البريطانى»* الصادر عام ١٩٠٨، بإحياء وإعادة النظر فى النقد الذى وجهه بورك لشركة الهند الشرقية بطريقة تخدم عملية الإصلاح الجذرى التى كان ينشدها دت. وخلص فى كتابه إلى أن «الهند قد تغيرت تحت حكم شركة الهند الشرقية»، وقال إن الشركة كانت بمنتهى البساطة «تنظر إلى الهند على أنها عزبة ضخمة أو مزرعة كبيرة يجب الخروج بأرباحها من الهند وإيداعها فى خزائن أوروبا»[١٦]. وصار هذا «الاستنزاف» فى أعمال دت رمزا ذا دلالة مؤثرة لاستغلال بريطانيا للهند، أولا عن طريق الشركة ثم من خلال الحكم البريطانى للهند.

وبعد مرور أربعين عاما أصبح الدور الذى لعبته الشركة فى الظلم الذى وقع على الهند جزءا من الحملة التى قادها جواهر لال نهرو من أجل الاستقلال التام

عن بريطانيا. فى صيف عام ١٩٤٤؛ تم إلقاء (نهرو) الذى أصبح فيما بعد رئيس وزراء الهند وراء القضبان ثانية، وتم عزله بعيدا فى حصن أحمد ناجار ليقضى فترة السجن التاسعة له والأخيرة والتى فرضتها عليه السلطات البريطانية، وجاء السجن هذه المرة عقب حملة «اخرجوا من الهند» التى قادها حزب المؤتمر فى عام ١٩٤٢. وأخذ نهرو ـ كما فعل فى الفترات السابقة التى قضاها فى السجن ـ فى القراءة والكتابة حتى يصل إلى فهم للأزمة، وفى خلال خمسة أشهر فقط تمكن من كتابة ألف صفحة، ولم يتوقف ـ على حد قوله ـ إلا لأن الورق كان قد نفد منه تقريبا، وهكذا خرج كتابه «اكتشاف الهند» إلى النور، ويعد هذا الكتاب آخر ثلاثة كتب ألفها فى السجن، وأكثرها عمقًا على الأرجح. ويعرض لنا نهرو فى الكتاب رؤيته عن علاقة تاريخ الهند المعقد والثرى بالصراع الذى تخوضه البلاد من أجل الاستقلال. وكان يرى أن كتابة التاريخ ليست عملية أكاديمية نائية وإنما ترتبط ارتباطا وثيقا بالتحرك من أجل تغيير الحاضر.

يبين الكتاب من أوله إلى آخره قناعة نهرو التامة بأن القرنين اللذين شهدا حكم بريطانيا للهند قد أثقلا كاهل الهند بعبء ثقيل لا بد من التخلص منه. إلا أنه عندما يصف شركة الهند الشرقية البريطانية وعملية النهب التى قامت بها فى البنغال بعد النصر الذى حققه كلايف فى معركة بلاسى، نجد أن صوت العقل الهادئ المتحضر فى كتابه يتحول إلى صوت يستشيط غضبا، فنجد نهرو يقول فى كتابه بغضب: **«لقد كانت الأجيال الأولى من الحكم البريطانى للهند تتسم بالفساد والرشوة والمحسوبية والعنف والطمع إلى حد لا يمكن تصوره»**. وتأكيدا على استيائه من ممارسات شركة الهند الشرقية فى الهند أضاف «أن أحد الكلمات الهندوسية التى أصبحت جزءا من اللغة الإنجليزية هى كلمة («loot ـ انهب»)، وهو أمر له دلالته المهمة»[١٧].

واليوم وبعد مرور عقد على تحرير الاقتصاد فى الهند، نجد أن ذلك التحليل المهم للدور الذى قامت به الشركة فى تاريخ الهند قد ظهر على السطح مرة أخرى. **ويجد الكثير من الهنود ـ وخاصة فى البنغال ـ أن قصة الشركة لها مغزيان مهمان: الأول هو أن الشركات عابرة القارات لا تسعى فقط وراء التجارة ولكن**

السلطة أيضا، والثانى هو أن الانقسام والخيانة بين الهنود يمكّن قبضة الحكم الأجنبى. ويقول جرشاران داس: «إن كل طفل يعلم جيدا قصة سقوط البنغال التى تنطوى على الغدر فى معركة بلاسى، فهل من العجيب أننا نرتاب من التجار والشركات الأجنبية؟»[١٨]. وقد زادت تلك المخاوف كثيرا فى أواخر التسعينيات من القرن العشرين بسبب عمليات انتهاك حقوق الإنسان والفساد التى ارتبطت بمشروع الطاقة الخاص بمؤسسة إنرون فى منطقة دابهول. وقال القاضى داود، وهو أحد قضاة المحكمة العليا المتقاعدين فى بومباى: «لقد عادت شركة الهند الشرقية ثانية» بعد أن رأس فريقًا لتقصى الحقائق عقب مجموعة من حوادث العنف التى وقعت فى دابهول فى شهر مارس ١٩٩٧[١٩]. ويرى الكثيرون أن السبب فى عدم تقبل الكثير من ممارسات إنرون فى دابهول هو تلاعبها الواضح، وكانت النتيجة هى إبرام عقد مع ولاية ماهاراشترا؛ ترى أروندهاتى روى أنه كان بمثابة «أكبر عملية نصب جماعى فى تاريخ البلاد»[٢٠]. وتقول أيضا إن إنرون قد تمكنت من القيام بذلك عن طريق استخدام **«إستراتيجية مجربة على مر العصور» كان أول من استخدمها شركة الهند الشرقية، وتقوم هذه الإستراتيجية على إفساد عملية صنع القرار وتقسيم المجتمع**[٢١]. ونجد أن عبارة «عودة شركة الهند الشرقية» أصبحت عبارة شائعة تستخدم مرارا وتكرارا لوصف التدفق الحالى للشركات عابرة القارات إلى الهند، سواء كانت شركات تعدين عالمية أو شركات أعمال على نحو أعم[٢٢].

ويرى البعض أن تركيز الشركات الأجنبية على «الحصول تدريجيا على السيطرة الفاعلة والثروة» يمكن تسميته «مرض شركة الهند الشرقية» فى أسوأ مراحله[٢٣]. وقد اكتشف أرفيند فيرماناجى من خلال استعراضه واسع النطاق للدروس المستفادة من الإصلاح الاقتصادى، وجود انقسام بين الأجيال، انقسام بين هؤلاء الذين نشئوا قبل الاستقلال والذين ولدوا بعده. «إن أهم ذكرى ثقافية عند المجموعة الأولى هى خضوعهم للحكم الإنجليزى لمدة قرن ولحكم شركة الهند الشرقية (وهى الذكرى الأكثر مرارة) لقرن آخر قبل ذلك». وكانت النتيجة هى إثارة الخوف لدى الهنود من أصحاب رءوس الأموال الأجانب، كما أن هذا

المرض يشمل فى أسوأ حالاته «نقصًا فى الثقة فى القدرات الذاتية أمام الأجانب البيض»[٢٤]. وتقوم الهند الآن بخطوات للتغلب على هذا «المرض». ويقول المراقبون إنه قد آن الأوان للهند كى «تتعافى» من مرحلة شركة الهند الشرقية. كذلك نجد حسا جديدا من التأكيد على الهوية القومية يحدد ملامح القرارات التى تتخذها الهند بخصوص النهج الاقتصادى المستقبلى لها، سواء كانت القضية تتعلق بتشديد القواعد الخاصة بتراخيص المستحضرات الدوائية أو بفتح قطاع تجارة التجزئة أمام الشركات الأجنبية[٢٥]. أيضا نجد أن هذا الحس القومى له تأثيره على وسائل الإعلام، ويظهر بشكل لافت للنظر فى الإعلان التليفزيونى الخاص بمنتج «بان مسالا»(*) الذى تنتجه شركة راجينجاندا، ففى هذا الإعلان الذى يقع مسرح أحداثه فى لندن، نجد أحد ملوك المال والصناعة فى الهند يوقف سيارته أمام المقر الرئيسى لشركة الهند الشرقية ويخبر السكرتير الخاص به أنه يريد شراء تلك الشركة: «لقد حكموا بلادنا لمائتى عام، والآن جاء دورنا لنتولى نحن الحكم».

رومانسية جديدة

إذا كان من الواضح أن الهند فى بعض الأحيان تتذكر شركة الهند الشرقية أكثر من اللازم، فإنه من اليسير اتهام بريطانيا بأنها لا تتذكر الدروس المستفادة على الإطلاق، فخلال فترة ليست بالبعيدة، كان هناك تزامن بين اختفاء شركة الهند الشرقية ماديا من شوارع لندن واختفائها من الذاكرة الثقافية للبلاد. خلال معظم الستين عاما التى تلت خروج بريطانيا من الهند؛ كانت «شركة جون» تعد من الأشياء التى يمكن إيداعها كتب التاريخ، ويثور الجدل بين الأكاديميين حول ما قامت به. إلا أن قدوم عصر العولمة غير ذلك كله وأدى إلى إحياء الاهتمام بما قامت به الشركة خلال العصور الأولى للتجارة العالمية. «شركة جون» التى انتهت منذ أكثر من قرن تمر بكل تأكيد بنوع من الإحياء. إن المعارض التى نظمت

(*) خليط من ثمار الجوز والبذور والأعشاب والتوابل يتم تناوله بعد الوجبات فى الهند، والشركة المذكورة واحدة من أهم وأفضل الشركات المنتجة له فى الهند ـ (المترجم).

فى دار الكتب القومية البريطانية وفى متحف فيكتوريا وألبرت، بالإضافة إلى مجموعة من التأريخات الشعبية، قد أعادت إلى الحياة المكانة التى كانت تتمتع بها الشركة الموقرة؛ فمؤسسوها يُمتَدَحون على أنهم مغامرون يتمتعون بالجرأة، عبروا أراضى العالم بحثا عن التوابل، ومديروها يوصفون بأنهم «مغول بيض» متعددو الثقافات.

أما بالنسبة لمجتمع الأعمال والتجارة، فنجد أن سحر الشركة يكمن فى نجاحها التجارى الذى يعد نموذجا للاقتصاد العالمى اليوم، فنجد على سبيل المثال أن مصرف «ستاندرد شارترد بانك»(*) كان أحد رعاة المعرض الذى أقيم فى دار الكتب القومية البريطانية فى عام ٢٠٠٢، والذى كان يدور حول شركة الهند الشرقية، وكان عنوانه «أماكن التجارة». **وفى ذلك الوقت؛ خرج رئيس البنك باستنتاجات واضحة من تاريخ الشركة، وقال إن التحدى الآن هو «بناء الإرث الثقافى الباسل المبدع والقومى بحق لشركة الهند الشرقية»**[٢٦]. كذلك وجد رود إدينجتون ـ أحد رؤساء شركة الطيران البريطانية فى وقت من الأوقات ـ التشجيع فى السجل التاريخى للشركة، حيث ينظر إلى الشركة على أنها دراسة حالة للنجاح الذى تحققه المؤسسات الكبرى «عن طريق العمل الجاد وحدة الذكاء والإبهار»[٢٧]. وقامت إحدى الشركات التى تعمل من خلال الإنترنت بعمل «مصنع افتراضى» على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) يقدم مجموعة من المنتجات التى تحمل علامات تجارية، وأطلقت عليه اسم شركة الهند الشرقية. إن استخدام اسم شركة الهند الشرقية ـ وفقا لما يقوله الموقع ـ «يعطى المصداقية لأى منتج أو خدمة» ويجمع بين «مواضع القوة للعلامات التجارية البريطانية ـ التقاليد وأساليب الترف العتيقة والطبقة التى لا تخطئ أبدا ـ وسحر البلاد الأجنبية والإبحار والسفر والمغامرة»[٢٨]. ومن المثير أن هذه الرؤية المتفائلة بالنسبة لشركة الهند الشرقية ليست مقصورة على الشركات البريطانية وحسب، فنجد فى ماليزيا أن محل متروجايا يعرض مجموعة من الملابس يطلق عليها اسم مجموعة شركة

(*) بنك بريطانى مقره الرئيسى فى لندن وله فروع فى أكثر من ٧٠ دولة فى العالم، وله أكثر من ١٧٠٠ فرع ومنفذ، ويعمل بفروعه هذه أكثر من ٣٧,٠٠٠ موظف ـ (المترجم).

الهند الشرقية، والتى تهدف إلى «إظهار والاحتفاء» بتلك الروح التى كانت سائدة عندما كانت الشركات البريطانية والهولندية والفرنسية تتنافس من أجل «تحقيق السيادة فى حصاد الأرباح التجارية فى منطقة كانت تتميز بالسخاء»[٢٩].

وينجذب البعض الآخر فى بريطانيا إلى الإرث الثقافى للشركة، ويرون أن التلاقى الذى حدث بين الشركة والهند نتج عنه مزيجا من أساليب الحياة، حيث كان التجار الإنجليز يرتدون الملابس المحلية، بل إن بعضهم اعتنق الديانة الإسلامية أو الهندوسية. وقد امتدح ويليام دالريمبل على وجه الخصوص «التعددية الثقافية النابضة بالحياة التى تتمتع بها شركة الهند الشرقية» من وجهة نظره[٣٠]، فنجد أن روايته **«المغول البيض»** تلقى الضوء على عالم كان فيه التجار الإنجليز يعشقون السيدات الهنديات وكذلك الثقافة الهندية، وذلك من خلال قصة علاقة عاطفية فى القرن الثامن عشر بين أحد مسئولى الشركة وامرأة من الطبقة الراقية فى مدينة حيدرأباد. إن الرسالة التى يبعثها إلينا فى العصر الحديث هى أن ذلك يوضح أن «صراع الحضارات» ليس حتميا وأنه «فى الإمكان التوفيق بين الشرق والغرب»[٣١]. وبالمثل نجد مسلسلا تلفزيونيا وثائقيا مهمًا فى بريطانيا خلال عام ٢٠٠١ ـ **«شأن هندى»** يتحدى الأفكار المسلم بها والتى سادت عن المواجهة التى حدثت بين بريطانيا والهند، حيث يصور علاقة «التعايش» التى نشأت بين الشركة والهند على أنها كانت علاقة مصالح مشتركة قبل أن يفسدها الاستعماريون فى بدايات القرن التاسع عشر[٣٢].

إلا أن كلتا هاتين الرؤيتين اللتين تتسمان بالرومانسية ـ الرؤية التجارية والرؤية الثقافية ـ لم تتطرقا إلى الخسائر التى تسببت فيها الممارسات التجارية للشركة، ففى ذلك الوقت ـ كما هو الحال الآن ـ كان يمكن للتجارة أن تجلب ثروة كبيرة، لكنها أيضا تتسبب فى البؤس والدمار. إن الذين ينظرون إلى الإمبراطورية البريطانية نظرة مثالية، يتهافتون على التركيز على فكرتى الشهرة والاستهلاك فى قصة الشركة، وكثيرا ما يرسمون صورة وردية وقاصرة إلى أبعد الحدود عن تلك الشركة. ونجد على وجه الخصوص أن النظر إلى الشركة من خلال وجهة نظر ثقافية يجعلنا نتناسى الغرض الحقيقى من وجودها فى الهند. بل إنه من الواضح

أن دار الكتب القومية البريطانية وقعت فى هذا الفخ عندما استضافت معرض **«أماكن التجارة»** فى عام ٢٠٠٢ . وكان هذا المعرض يركز على الدور الذى لعبته الشركة فى نشأة المجتمع الاستهلاكى الحديث من خلال الجمع بين كم هائل من المصنوعات اليدوية، ويبحث فى الأسباب التى جعلت بريطانيا «شعبا يشتهر بشرب الشاى» وجعلت «كلمات مثل shampoo (وهى كلمة هندية تعنى «مستحضر طبى لغسل الشعر») وrice (وتعنى «أرز») و bungalow (وتعنى «كوخ») جزءا من اللغة الإنجليزية» . وأقر المعرض بالجانب المظلم من أنشطة الشركة، موضحا أن الشركة اشتهرت فى الأعوام التى تلت عام ١٧٥٧ «بأنها تنهب ثروات الهند حيث كان موظفوها يقومون بتكديس الثروات لحسابهم الخاص»، ووصف المعرض ذلك بأنه «استنزاف البنغال»، إلا أن تلك الاعترافات ضاعت فى الأعم الأغلب وسط التمجيد الذى لقيته الأنماط الاستهلاكية التى كانت الشركة رائدة فيها . وكان المعرض حريصا بكل تأكيد على إظهار شهرة السلع التى كانت الشركة تتاجر فيها فى ذلك العصر . إلا أنه كان هناك إحجام عن إقامة صلات على نفس الدرجة من القوة بين قضايا سلطة الشركات الكبرى والتجارة العادلة وحقوق الإنسان، والتى أثرت على التجار فى القرن الثامن عشر، وتؤثر بنفس القدر على الشركات متعددة الجنسيات فى القرن الحادى والعشرين .

لكن الأهم من ذلك هو أن الخطط الأولية للمعرض لم تأخذ فى الاعتبار الوقع الذى ستتركه رؤية المعرض عن الشركة على الجاليات المختلفة فى بريطانيا، فعندما سمعت الجالية الصينية فى المملكة المتحدة عن الإعداد للمعرض أصابها الهلع، وقامت بعمل موقع دعائى على شبكة المعلومات الدولية وأسمته «حقيقة معرض أماكن التجارة» ويهدف إلى التأكيد على المعاناة البشرية التى تسببت فيها عمليات استيراد الأفيون إلى الصين والذى كانت الشركة تشرف على زراعته فى البداية، ثم تولى الاستعمار البريطانى تلك المهمة فيما بعد عن طريق الاحتكار[٣٣] . ونجحت تلك الحملة، وتم إضافة لوحة إضافية إلى المعرض تقول إن **«التجارة الحرة إلى آسيا كانت تعنى حرية نقل شحنات الأفيون المربحة**

واللاأخلاقية». لقد انتهت الشركة منذ زمن طويل، إلا أن المعارك التى خاضتها لا تزال قائمة حتى الآن.

محاسبة «شركة جون»

من المفروض أن ننظر إلى شركة الهند الشرقية على حقيقتها، وهى أنها كانت شركة تهدف إلى الربح بأى ثمن، وبأى وسيلة، جمعت ثروات هائلة وتسببت أيضا فى معاناة بشرية كبيرة. وكان معاصرو الشركة واعين تماما لتلك الازدواجية منذ الأيام الأولى للشركة عندما كانت تعمل فى تجارة التوابل، حتى صارت تتولى إدارة الهند بترخيص من الحكومة البريطانية. كانت الإمكانيات الاقتصادية الفريدة التى تتمتع بها الشركة وراء انجذاب كل من البريطانيين والآسيويين إليها، سواء النساجون الهنود الذين كانوا يرغبون فى الحصول على عمل ثابت، أو التجار البريطانيون المغامرون الذين كانوا يرغبون فى تحقيق الثراء والغنى فى الشرق. وبالمثل كان الدور الذى تلعبه الشركة والمسلك الذى تنتهجه دائما محل الاعتراض من قبل التجار الذين حرموا من التجارة مع آسيا، والحكام الهنود الذين كانوا يشعرون بالخوف من النوايا الحقيقية للشركة، والبرلمانيين الذين كانوا ينتقدون المسلك الذى انتهجته الشركة خارج البلاد.

وعادة ما يحمل المرء بداخله مشاعر بالإعجاب بالشركة وكذلك العداء لها فى الوقت نفسه. وتعد مجلة **«جنتلمنز ماجازين»** ـ إحدى المجلات الإنجليزية الرائدة فى القرن الثامن عشر ـ مثالا على مشاعر الخوف والإعجاب التى كانت الشركة تثيرها فى نفوس الناس، **ففى مارس من عام ١٧٦٧ ـ بعد مرور عام على وصول أنباء حصول الشركة على حق تحصيل الضرائب فى البنغال، والذى يدعى «حق الديوانى» ـ أعلنت المجلة «أن القيمة الهائلة لهذه الممتلكات الجديدة يمكن أن تفتح لهذه الأمة نبعا من الثراء لن يؤدى فقط ـ خلال سنوات قليلة ـ إلى تسديد الدين القومى وتخفيف الضرائب على الأراضى وتخفيف عبء الضرائب عن كاهل الفقراء بل سيضيف أيضا إلى حصص الأرباح على أسهم الشركة نسبة من العائدات المتزايدة تبهر أوروبا وتفوق أكثر التوقعات تفاؤلا»**[٣٤]. وبعد مرور

شهر واحد فقط أخذت نفس المجلة تحذر من العواقب الوخيمة التى قد تترتب على حصول هيئة تجارية على ذلك الثراء، وتقول إنه سرعان ما ستقوم الشركة «بتكرار نفس الأعمال الوحشية فى هذه الجزيرة، تلك الأعمال التى وصمت جبين الإنسانية بالعار، وغمرت سهول الهند بدماء الأبرياء من السكان المحليين». كان كاتب المقالة يرى أن الحل الوحيد هو تخفيض حجم الشركة إلى الحد المطلوب، وفى نهاية المقالة حاول حشد تأييد القراء عن طريق شعار «لتسقط تلك البقية المتبقية من آثار السلطة غير الدستورية، شركة الهند الشرقية!»[٣٥].

وقد امتدت هذه الازدواجية لتشمل مديرى الشركة أنفسهم، والذين كانوا يراعون مراعاة كبيرة الثقافة الهندية فى حياتهم الخاصة، وفى الوقت نفسه يقومون بأعمال استغلال رهيبة لحساب الشركة. وإننا لنجد فى مشوار حياة وارين هاستينجس ـ الذى أصبح أول حاكم عام للهند من الشركة فى عام ١٧٧٣ـ مثالا واضحا على هذا الصراع بين الثقافة والتجارة. كان هاستينجس يتحدث اللغات المحلية فى الهند بطلاقة، وكان خَيِّرا محسنا، وقام بتقديم الدعم المادى لإخراج أول ترجمة إنجليزية للنص الدينى الهندوسى «البهاجفاد جيتا»، كما قدم الدعم اللازم لإقامة جامع جديد ملحق به مدرسة للطلبة المسلمين فى كلكُتا، وأمر بإقامة معبد بوذى على ضفة نهر هوجلى، بل إن نهرو نفسه يقول إن «الهند تدين بالعرفان بالجميل» لمديرى الشركة من أمثال هاستينجس، ووليام جونز لأنهم ساعدوا فى إعادة اكتشاف تراث الهند[٣٦]. إلا أن ما قام به هاستينجس بالنسبة للثقافة الهندية كان دوما يأتى فى المرتبة الثانية بالنسبة لدوره فى تكوين الثروات للشركة ومساهميها. هاستينجس هو الذى فرض احتكار الشركة على إنتاج الملح والأفيون فى البنغال لتحقيق مصالحها، وهو أيضا الذى أصدر الأوامر لخروج أول رحلة لتهريب الأفيون إلى الصين، متحديا عن عمد الحظر المفروض من قديم الأزل على استيراد الأفيون هناك. وعلى الرغم من التهم الثابتة بالابتزاز والرشوة والفساد، أعلن مجلس اللوردات براءة هاستينجس، بل وشكره بعد محاكمة ماراثونية.

بالضبط مثلما يجب أن نحكم على المؤسسات الضخمة اليوم من خلال آثار أعمالها الأساسية وليس من خلال إسهاماتها الهامشية غالبا فى الأحداث

الثقافية، فإنه يجب تقييم شركة الهند الشرقية على أساس أنشطتها الأساسية وليس على أساس أفعال الإحسان التى كان مديروها يقومون بها أحيانا. إن الإحجام المستمر عن البحث فى المدى الكامل لأثر شركة الهند الشرقية، هو جزء من فقدان الذاكرة العام بخصوص الدور التاريخى الذى تلعبه الأعمال التجارية. ويظل من الغريب أنه بالرغم من أن الشركات هى من بين أقوى المؤسسات فى العصر الحديث، فإن كتب التاريخ ما زالت تركز على أفعال الدول والأفراد فى السياسة والثقافة، وليس على الشركات الكبرى أو مديريها أو تأثيرهم. ونحن إذا ما كنا نريد أن نفهم على نحو كامل عالمنا الحاضر الذى يتميز بالمؤسسات الضخمة، فلا بد أن نفهم ماضينا وشركاته الضخمة ـ وهذا يعنى الإمساك بإرث «شركة جون». وبالفعل كان بعض من أبرز نقاد هذه الشركة قد توقعوا من أجيال المستقبل أن تنظر مثل هذه النظرة القاسية إلى أداء الشركة؛ فقد كتب ريتشارد كلارك عام ١٧٧٣ يقول: «إن مؤرخى الأمم الأخرى (إن لم يكن مؤرخو أمتنا) سوف ينصفون من أضرتهم الشركة فى الهند، ولسوف يورثون ذكرى القامعين إلى آخر ذريتهم». وفى المقدمة التى كتبها لقصيدته الهجائية الطويلة الموسومة «النابوب، أو المحتال الآسيوى»، حث كلارك بنى وطنه على أن «يخلدوا ذكرى سخطهم الشريف على أعداء البشرية هؤلاء»[٣٧].

وبعيدا عن كون الشركة أثراً باليّا، فإنها تعتبر مثالا للمعركة الدائمة داخل الشركات الضخمة بين منطق التبادل والرغبة فى السيطرة. وفى استمرارها لمدة قرنين، تصور الشركة أن السعى لتحقيق مساءلة مؤسسات الأعمال، هو ممارسة لازمة لتوجيه طاقات التجار والمقاولين، بحيث لا تقوض أهواؤهم الشخصية المصلحة العامة. ونحن نقترب من الذكرى الخمسين بعد المائتين لمعركة بلاسى، فإن الصدام المستمر بين منظورى نشطاء الشركة الضخمة فى الهند والرومانسيين الإمبراطوريين فى بريطانيا ليشدد على الحاجة إلى بعض من «السخط الشريف» مرة أخرى لكى نستوعب مدى تأثير الشركة. ولنستعير هنا بيتين من قصيدة للشاعر الأردى أسد الله خان غالب، الذى عاش فى القرن التاسع عشر، فنقول «بالرغم من أن الجرح كان خفيا، لا يتوقف الدم أبدا عن السيلان».